# سيزا نبراوي

١٨٩٧ – ١٩٨٥

سيزا نبراوي هي واحدة من أولى رائدات حركة تحرير المرأة في مصر وفي العالم العربي. برز إسمها إلى جانب هدى شعراوي منذ أن بادرت شعراوي ومعها نبراوي، في عام الثورة الوطنية المصرية (١٩١٩) بقيادة سعد زغلول، إلى إدخال المرأة في المعركة الوطنية، مقرونة بالدعوة إلى تحرير المرأة من قيودها القديمة. ففي ذلك التاريخ بالذات بدأت الحركة النسائية المصرية مسيرتها التحررية بجانبيها، تحرير مصر من الاحتلال البريطاني وتحرير المرأة المصرية من عبوديات الماضي. وكان من أوائل ما قامت به هدى شعراوي وسيزا نبراوي وزميلات أخريات لهما، في عام ١٩٢١ وأمام سعد زغلول وبتشجيع منه، نزع الحجاب ثم الانطلاق في التظاهرات تأييداً لموقف سعد زغلول ولنهجه في النضال لانتزاع إستقلال مصر الوطني. وتشير المراجع العديدة عن تلك المرحلة من تاريخ مصر إلى إرتباط إسم سيزا نبراوي بإسم هدى شعراوي في كل المعارك التي تزعمتها شعراوي منذ ذلك التاريخ حتى وفاة تلك الزعيمة النسائية الرائدة في عام ١٩٤٨. وقد ورثت سيزا نبراوي صديقتها هدى شعراوي في المعارك الوطنية والاجتماعية وفي المعارك الخاصة بتحرير المرأة المصرية. كما تشير تلك المراجع ذاتها إلى أن حركة تحرير المرأة كانت تشكّل في أساس انبعاثها إستكمالاً وتطويراً معاصراً لما كان قد بدأه قاسم أمين رائد تحرير المرأة في أواخر القرن التاسع عشر، مدعوماً في حينه من معلمه وصديقه الامام الشيخ محمد عبده أحد رواد حركة الاصلاح الديني الأولى في العصر الحديث. ويقال بأن الامام محمد عبده كان شريكاً لقاسم أمين في صياغة كتبه أو بعضها التي كرّست قاسم أمين رائداً لحركة تحرير المرأة بامتياز. وتجدر الاشارة هنا إنصافاً للتاريخ ولأهله إلى أن الفترة التي برز فيها إسم قاسم أمين كانت قد عرفت أسماء ثلاثة نساء ممن إرتبط إسمهن بحركة تحرير المرأة في بداياتها. وهنّ زينب فواز اللبنانية والمصريتان عائشة التيمورية وملك حفني ناصف (باحثة البادية). لكن إسم قاسم أمين طغى على أسمائهن من دون أن يلغي أدوراهن.

على أن العلاقة بين التطور الذي شهدته الحركة الوطنية المصرية في الربع الأول من القرن الماضي وبين الولادة الجديدة لحركة تحرير المرأة هي من العلامات الفارقة في تاريخ الحركة الوطنية المصرية التي إمتد وهجها ليشمل سائر البلدان العربية في المشرق والمغرب. وقد اتخذت حركة تحرير المرأة المصرية منذ ذلك التاريخ طابعاً مستقلاً وشجاعاً إلى الحد الذي دفع هدى شعراوي إلى أن تتجرأ بتوجيه النقد إلى سعد زغلول في بعض مواقفه، عندما كانت ترى فيها تراجعاً عن النهج الصحيح في مقاومة الاستعمار وفي الذهاب في الحركة الاستقلالية إلى نهاياتها من دون مساومات. ولم يمنعها من ذلك كل ما كان يحظى به سعد زغلول في تلك الفترة من زعامة ومن نفوذ ومن قوة شعبية لم يضاهيه فيها أحد.

وإذا كانت هدى شعراوي قد حظيت باهتمام كبير لدى المؤرخين والباحثين باعتبارها رائدة حركة تحرير المرأة المصرية فإن حظ سيزا نبراوي وزميلاتها الآنف ذكرهن من ذلك الاهتمام كان أقل. وفي ذلك إجحاف بحق هذه الكوكبة من رائدات حركة تحرير المرأة. إلا أن لسيزا نبراوي دوراً لا ينسى في متابعة ما كانت قد بدأت به صديقتها هدى شعراوي. وبرز دورها في جملة النشاطات السياسية والاجتماعية والثقافية التي قادتها سيزا في مصر ومن خلال مشاركتها في العديد من المؤتمرات المصرية والعربية والعالمية الخاصة بالمرأة، إضافة إلى المؤتمرات التي كانت تهتم بقضايا الحرية والسلم في العالم. وظلّت سيزا تمارس ذلك النشاط في وجوهه العامة المتعددة حتى وفاتها في عام ١٩٨٥ تاركة وراءها ما يقرب من تسعين عاماً من عمر حافل بالعطاء الغني بالتجارب، وتراثاً من النصوص التي كانت تملأ المجلة التي رأست تحريرها (المصرية)، والمجلات الأخرى التي حفلت بالعديد من كتاباتها في شتى المجالات.

فمن هي سيزا نبراوي هذه الرائدة في حركة تحرير المرأة؟

اشتهرت سيزا نبراوي بإسم ليس هو إسمها وبعائلة ليست هي عائلتها. فإسمها الحقيقي هو زينب محمود مراد. وهي من مواليد عام ١٨٩٧. ومكان ولادتها هو قرية القرشية في محافظة الغربية. وصادف زمن ولادتها إشتداد الخلاف بين والدها ووالدتها إنتهى بهما إلى الطلاق. تزوج الأب من امرأة ثانية فور طلاقه من والدتها. وكاد الوضع الجديد الذي ولدت فيه أن يقودها إلى الضياع لولا أن أتيح لها أن تدخل في رعاية إحدى قريبات والدتها التي تبنّتها وأعطتها إسماً آخر هو سيزا ومنحتها إسم عائلتها نبراوي. وحملتها قريبة والدتها التي إهتمت برعايتها وتبنتها إلى القاهرة. وهكذا بدأت الطفلة زينب حياة جديدة برعاية أمها الجديدة وتخلت عن إسمها الأصلي وصارت تحمل إسم سيزا. كانت تلك الأم تسافر كثيراً إلى أوروبا. فكانت تأخذها معها في سفراتها. ثم أدخلتها في مدرسة في الاسكندرية كانت مكرّسة لبنات العائلات الكبيرة والغنية. وهي المدرسة التي تخرجت منها الملكة نازلي والملكة فريدة. وظلّت سيزا في تلك المدرسة إلى أن نالت شهادة الكفاءة. وانتهت هناك دراستها لأن تلك الحقبة من تاريخ مصر لم تكن تسمح للبنات بدرجة علمية تتجاوز تلك الدرجة. إلا أن سيزا تمكنت من إتقان اللغتين الفرنسية والانجليزية. الأمر الذي سهّل لها متابعة تثقيف نفسها بنفسها من خلال كثرة القراءات وتنوع مواضيعها. رشحت في عام ١٩٢١ لتكون أول ناظرة في إحدى المدارس. لكن التقاليد منعتها من القيام بتلك المهمة. وكانت سيزا عندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها قد فجعت بإنتحار أمها البديلة بسبب مشكلات مع زوجها أرهقتها وعذبتها. في ذلك الوقت بالذات إكتشفت سيزا أن أمها هذه لم تكن هي أمها الحقيقية. وكان وقع الأمر قاسياً على نفسها. إلا أنها سرعان ما بدأت تعتاد على ما كانت قد نشأت عليه. وكان لهدى شعراوي دور أساسي في إنقاذها من المخاطر التي واجهتها بعد وفاة أمها البديلة. وبدأت سيزا مع شعراوي حياتها من جديد. رافقت سيزا هدى شعراوي في العديد من المعارك الأولى التي خاضتها تلك الرائدة

المصرية الشجاعة. وفي عام ١٩٢٣ رافقت سيزا صديقتها هدى للمشاركة في مؤتمر دولي كانت تحضره المرأة المصرية لأول مرة. وذهبت في العام ذاته برفقة هدى شعراوي لمقابلة رئيس الوزراء في حينه يحي باشا إبراهيم وطلبتا منه تحديد سن زواج الفتاة بستة عشر عاماً. كما طالبتاه بالمساواة بين الفتيات والفتيان في فرص التعليم. وإستجيب لطلبهما في الأمرين. وفتحت في ذلك التاريخ أول مدرسة للبنات هي مدرسة شبرا الثانوية. وقد حضرت سيزا في عام ١٩٣٢ حفل تخريج أول دفعة من الفتيات من الجامعة. وبعد عام من ذلك التاريخ أعلنت الزعيمتان قيام الاتحاد النسائي المصري كأول تنظيم يعنى بقضايا المرأة المصرية. وانطلاقاً من تجربتها في الاتحاد النسائي المصري مع هدى شعراوي وزميلاتهما الأخريات من رائدات الحركة النسائية المصرية شاركت سيزا في عام ١٩٤٤ بتأسيس الاتحاد النسائي العربي.

إلا أن تحديد مطالب الحركة النسائية الخاصة بالمرأة كانت واضحة منذ وقت مبكر. ففي عام ١٩٢٤ صدر بيان مشترك للاتحاد النسائي المصري واللجنة التحضيرية للسيّدات الوفديات تضمّن المطالب الأساسية الآتية:

١- "مساواة الجنسين في التعليم وفتح أبواب التعليم العالي وامتحاناته لمن يهمها ذلك من الفتيات تشجيعاً لنبوغ من لها مواهب خاصة (ولا يفوتنا ذكر مدام كوري مكتشفة الراديوم إستشهاداً على نبوغ المرأة)، وتسهيلاً للتكسب لمن تحتاج منهن ورفعاً لمستوى العقلية العامة في البلاد.

٢- تعديل قانون الانتخاب باشتراك النساء مع الرجال في حق الانتخاب ولو بقيود في الدور القادم، كاشتراط التعليم أو دفعها نصاباً معيّناً على مالها من الملك. ولا يكون من الانصاف الاعتراض على إشتراك هذه الطبقة من النساء لا سيما وقانون الانتخاب يجعل للرجل الأمي والخالي من الملك حقاً في أن ينتخب ويُنتخب. وليس

من المعقول ولا من العدل وأغلبية الرجال كذلك أن تحرم المرأة مع الشروط المتقدمة من المساواة بمثل هذا الجمهور من الرجال.

٣- إصلاح قوانين الزواج وذلك:

أ . بسن قانون يمنع تعدد الزوجات إلا لضرورة كأن تكون الزوجة عقيماً أو مريضة.

ب . بسن قانون يلزم المطلق أن لا يطلّق زوجته إلا أمام القاضي الشرعي".

شاركت سيزا في عام ١٩٢٥ بإنشاء أول مجلة مصرية باللغة الفرنسية وتولت هي رئاسة تحريرها. وهي مجلة "المصرية" (l'EGYPTIENNE ) التي حوّلتها إلى منبر للدفاع عن قضية المرأة وعن القضية الوطنية في آن. كما شاركت في عام ١٩٣١ في المظاهرة النسائية التي قامت ضد إلغاء الدستور. وشاركت في حملة مقاطعة الانتخابات المزورة التي نظمها إسماعيل صدقي في عام ١٩٣٦. وهي الحملة التي سالت فيها دماء المصريين والمصريات والتي يؤرخ بها فصل من تاريخ الحركة الوطنية المصرية. في عام ١٩٣٥ أصدرت سيزا مواقف تندد بإستخدام إيطاليا للغازات السامة في حربها ضد الحبشة. وكانت منذ وقت مبكر شديدة الحساسية إزاء قضايا السلم والحرب والقضايا الوطنية التحررية العربية والعالمية. وشاركت في عام ١٩٣٨ في أول مؤتمر نسائي عربي لنصرة قضية فلسطين. وكانت من أوائل الذين وقفوا ضد إستخدام أميركا للقنبلة الذرية في عام ١٩٤٥ في مدينتي هيروشيما وناكازاكي اليابانيتين. كما شاركت في تأسيس حركة أنصار السلم العالمية في عام ١٩٤٩. وساهمت في تأسيس لجنة أنصار السلم المصرية في عام ١٩٥١.

وشاركت في تنظيم أول لجنة نسائية للمقاومة المسلحة في منطقة القناة ضد القواعد العسكرية البريطانية. وانضمّت في عام ١٩٥٣ إلى الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي وإنتُخبت نائبة للرئيسة. وشاركت في عام ١٩٥٦ في تشكيل اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية ضد العدوان الثلاثي على مصر. وساهمت في عام ١٩٥٧ في الحملة الشعبية لنشر الوعي بين النساء المصريات ودعوتهن للمشاركة في الانتخابات لمجلس الشعب بعد أن حصلت المرأة المصرية على حقوقها السياسية في أعقاب إنتصار ثورة يوليو. ورشّحت سيزا نفسها في تلك الانتخابات. وشاركت في الدفاع عن المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد في عام ١٩٥٨ عندما اعتقلتها القوات الاستعمارية الفرنسية وهددت بإعدامها. وجاء ذلك في إطار الحملة العالمية التي ساهمت في إنقاذ تلك المناضلة. ثم صارت سيزا مشاركة شبه دائمة في عشرات المؤتمرات العربية والعالمية دفاعاً عن قضايا المرأة وحقوقها ودفاعاً عن القضايا الوطنية المصرية والعربية وانتصاراً لقضية الحرية والسلم في العالم. وحصلت على العديد من الأوسمة أهمها وسام لينين العالمي ووسام الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي.

تعرفت إلى سيزا نبراوي في عام ١٩٦٢ عندما كانت تشارك في المؤتمر العالمي لنزع السلاح الذي عقد في موسكو. وكنت في ذلك الحين عضواً في مجلس السلم العالمي ومسؤولاً في قيادته اليومية في فيينا عن أفريقيا الشمالية والشرق الأوسط. وظللت ألتقي بها خلال عقد الستينات في المؤتمرات التي كان ينظمها مجلس السلم العالمي. كما كنت ألتقي بها في مصر. وكانت قد أصبحت في ذلك الحين شخصية مرموقة في قلب الحركة الديمقراطية المصرية وداخل صفوف اليسار الشيوعي. وكانت تتمتع بثقافة عالية وبصفات إنسانية رائعة. ولم أكن أعرف في ذلك الحين أية معلومات عن تاريخها السابق لأنها كانت

قد تحوّلت في ذلك الزمن إلى شخصية من نوع مختلف عن شخصيتها السابقة، رغم أن تاريخها القديم هو الذي كان قد أعطاها الوزن الذي إكتسبته في الحركة الديمقراطية المصرية والعربية والعالمية. وحين زرت مصر في عام ١٩٨٩ كانت سيزا نبراوي قد غادرت الحياة. ولن أنسى ذلك الوجه الجميل والأنيق وتلك الروح الطيّبة وذلك التصميم الراسخ على الكفاح من أجل قضايا الحرية والسلم والتقدم والعدالة من دون هوادة. ورغم ما كان يبدو لي في مواقفها السياسية من ثقافة غربية خصوصاً بفعل تربيتها إلا أنني لم أكن قد قرأت أياً من كتاباتها. وكانت كتاباتها التي تعرفت إليها بعد وفاتها أحد مفاتيح التعرف من جديد على شخصيتها كاملة. وهي كتابات حفلت بها مجلتها "المصرية". كما حفلت بها مجلات مصرية أخرى. وكانت كتاباتها تلك تتناول جميع المواضيع ذات الصلة بالمرأة وبقضايا مصر والعالم العربي الوطنية وبقضايا السلم والحرية في العالم.

إلا أن لكتابات سيزا نبراوي في الزمن الأول في مجلة "المصرية" أهمية تاريخية لا بد من التوقف عند مدلولاتها. لنقرأ بعض ما كتبته في الدفاع عن حقوق المرأة وعن دورها في المجتمع، وعن الضرورة الوطنية لتحريرها. فهي ترى أن نزع الحجاب والاختلاط بالرجال هو مدخل حقيقي لتحرير المرأة. وتحمل في موقفها ذاك على أولئك الرجعيين الذين تقول عنهم في أحد مقالاتها في عام ١٩٢٦ أنهم "يعتبرون أن الزمن يجب أن يوقف مجراه. وينسون أن التطور قانون طبيعي لا يمكن إلا أن نخضع له شئنا أم أبينا. والأجيال الجديدة التي تحيا في حمّى السرعة لا يمكن أن تتلاءم مع تلك الحياة القديمة الساكنة". وتضيف قائلة: "لقد غدت شروط الحياة الاقتصادية أكثر صعوبة. ولا يمكن للجيل الشاب أن يحيا حياة الأجداد... ولكي يسير تطور مصر في مجراه الطبيعي يجب أن يتكيف شيئاً فشيئاً مع مقتضيات الزمن". وهي لذلك ترى ضرورة أن يجري تعديل جوهري على قانون الأحوال

الشخصية. وتطرح للتعديل أولاً مبدأ تعدد الزوجات إلا في حالتين: العقم والمرض المستعصي. كما تطرح تعديل قانون الطلاق فتقترح له قيوداً صارمة، وتقرن بذلك موضوع حراسة الأولاد أو حضانتهم عند الطلاق بتطويل أمد الحضانة. كما تطرح للتعديل سن الزواج لترفعه إلى سن السادسة عشرة. وتصر على أن الدين لا يقف في طريق تطور المرأة، متهمة بذلك المؤسسات الدينية أو من تسميهم الرجعيين بتشويه الدين. وهي تستشهد لإسناد موقفها بآيات قرآنية. وتؤوّل في حالات أخرى آيات قرآنية من دون أن تتجاوز حدود قدسية النص القرآني. وهي تقول في أحد مقالاتها: "إذا كان تطور المرأة في الشرق قد إستطاع هنا وهناك أن يبدو سريعاً سرعة مذهلة، كما هي الحال في تركيا مثلاً، فذلك لأن الشريعة الاسلامية خلافاً لما نظن عادة تأخذ بيد المرأة ولا تعارض أبداً في تقدم الأفكار الجديدة". ثم تضيف بجرأة نادرة في ذلك التاريخ بأنه إذا إختلفت التقاليد التي تنسب إلى الدين مع الوطنية فإن الأولوية هي للوطنية. وتقول: "إن المثل الأعلى الديني الذي كان قديماً مصدر جميع الأفعال قد حلّت محله شيئاً فشيئاً الوطنية التي هي ميزة عصرنا". وتستشهد بالمثل التركي لتؤكد صحة موقفها فتقول: "إن هذا البلد قد خلق بطريقة سليمة ثورة لا تصدق، ثورة دينية وسياسية واجتماعية... بينما كان على النساء في جميع البلدان أن تناضل لنيل حقوقهن". ثم تتابع في مقال حول التعليم في تركيا في الاتجاه ذاته قائلة: "بما أن مبدأ المساواة في أساس كل ديمقراطية حقيقية فقد كان من حق الجمهورية التركية أن تيسّر لجميع مواطنيها– دون تمييز للجنس أو الطبقة – بلوغ ميادين العمل التي يفتحها تعليم شباب البلد".

ولأن سيزا نبراوي قد جعلت النهضة السياسية والاجتماعية والثقافية نبراس حياتها، فهي لم تكتف بالحديث عن تحرير المرأة. بل هي تجاوزتها إلى جميع القضايا ذات الصلة بهذه

النهضة. وقد كتبت الكثير من المقالات حول تلك القضايا. وألقت الكثير من المحاضرات. وشاركت في صياغة الكثير من البيانات مع زميلاتها حول مجمل تلك القضايا. وقد لفتني في بعض كتاباتها إهتمامها بالثقافة القومية وتحديدها لمفهوم هذه الثقافة قديمها وحديثها. فهي تقول في أحد مقالاتها حول التراث: "لكي تكون اليقظة التي تتجلى في جميع ميادين نشاطنا الوطني غير مفتعلة وغير وقتية يجب أن تستند إلى إتجاهين يبدوان في الظاهر متناقضين لكنهما يتكاملان: احترام التقاليد الشرقية بما فيها من مجيد وأصيل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى حب التقدم بما فيه من نافع وحسن. وهكذا نأخذ من ماضينا أحسن ما فيه ونأخذ من العلم الحديث أنبل ما فيه مهيئين المستقبل المجيد لوطننا". وإذ تتناول في مقالها الأسس الحقيقية للثقافة فإنها تعتبر التعليم هو الأساس الأول في ذلك. وتقول: "ولكي يكون التعليم مفيداً عندنا يجب أن يستجيب لإستعدادات شعبنا الطيبة للثقافات التي يحبها ويفهمها. والثقافتان اللتان تتلاءمان أفضل تلاؤم مع تقاليده وعبقريته هما الثقافتان العربية واللاتينية. فمن المهم إذن أن تكونا جزءاً من برنامج دراستنا. وبدون معرفة معمقة للغة العربية والتاريخ العربي والأدب العربي لا يمكن لمصر أن تعمد إلى قيادة حركة التجديد الفكري، هذا التجديد الذي أخذ يرتسم لدى جميع شعوب الشرق الأدنى".

وتقول في مقال في مبايعة الشاعر أحمد شوقي لإمارة الشعر في عام ١٩٢٧: "اللغة العربية... بفضلها يستطيع العرب جميعاً من المغرب إلى العراق أن يتواصلوا بالرغم من المسافات. فهي التي تتيح لهم، عبر دراسة الماضي الواحد والتقاليد المتشابهة، أن يحسوا أنهم أخوة في الأفراح والأتراح على حد سواء. فلنفعل كل شيء من أجل إنقاذها". وهي تشير بذلك إلى اعتراضها على إستخدام اللغة المحكية في الكتابة باعتبار أن اللهجات

تختلف بين بلد عربي وآخر، إذ ينشأ من جراء هذا الاختلاف، إذا ما جرى اعتماد اللهجات المحكية، تباعد بين هذه البلدان.

تلك هي شذرات من أمثلة على عمق الوعي وعمق الثقافة وقوة التصميم عند سيزا نبراوي في نضالها على إمتداد العقود التسعة من حياتها لتحرير المرأة ولتقدم بلدها مصر ولنشر الحرية والسلام في العالم ولتحقيق النهضة والتقدم لمصر ولسائر البلدان العربية.